المحاضرة الأولى والثانية: مفهوم الأدب المقارن نشأته وتطوره

مقدمة:

إن الإبداع ليس حكرا على أمة بعينها، وإنما ملك للإنسانية جمعاء لذلك من البديهي أن يكون الإبداع وليد الانفتاح على حضارات وعدم العزلة، لأن العزلة تعني الانغلاق على الذات والابتعاد عن معطيات العصر، وبالتالي التخلف، فأي تطور لا بد له من الاطلاع على إنجازات الآخر الذي سبقنا في مجال العلم كما سبقنا في مجال الأدب والنقد، دون أن ننسى التمسك بكل مقوماتنا الشخصية التي صنعت لنا حضارة خاصة، وهذا لا يكون إلا بالاستفادة من إنجازات الأجداد الذين سبقونا والمعاصرين الذين نعايشهم للمشاركة في التطور الإنساني، ومن هنا تبرز أهمية دراسة الأدب المقارن.

1. مفهوم الأدب المقارن

صاحبت نهاية القرن التاسع عشر ظهور نظريات ومناهج تحاول قراءة الأدب من منظورات متعددة وقد كان ظهور الأدب المقارن مرتبطا بمناهج العلوم الطبيعية والمناهج الفلسفية حتى تسهم في صناعة منهج يسعى لقراءة الأدب في علاقاته الخارجية، فما معنى مصطلح الأدب المقارن؟.

أ. تعريف الأدب

اختلف النقاد في تعريف كلمة أدب بين القديم والحديث، فمن الدعوة إلى الطعام في العصر الجاهلي إلى حسن الخلق في العصر الإسلامي وصولا إلى العصر الحديث حيث أصبح يمثل أحد أهم أشكال التعبير البشري والتي من خلالها يمكن للإنسان أن يعبر عما يجول في نفسه من أفكار ومشاعر وعواطف وهواجس وخواطر بأسلوب راق وبديع يندرج تحته الكثير من الأشكال الأدبية: النثر، والرواية، الشعر، القصة...وغيرها. ويكون الأدب مرتبطا بشكل كبير بلغة كل أمة من الأمم لأنه المخزن الذي تخزن فيه نتاجها وتاريخها وثقافتها.

ب. تعريف المقارن

لغة: اشتق من فعل (قارن)- (ق-ر-ن). جاء في معجم الوسيط: أقرن فلان: جمع بين شيئين أو عملين .

اصطلاحا: تشير كلمة مقارنة إلى إجراء فحص أو تحليل شيئين أو أكثر من أجل تحديد الاختلافات والتشابهات بينهما.

ت. تعريف الأدب المقارن (Comparative Literature)

الأدب المقارن فرع من فروع المعرفة، يتناول المقارنة بين أدبين أو أكثر من أدبين، ينتمي كلٌّ منهما إلى أمة أو قومية غير الأمة أو القومية التي ينتمي إليها الأدب الآخر، وفي العادة إلى لغة غير اللغة التي ينتمي إليها أيضًا، وهذه المقارنة قد تكون بين عنصر أو أكثر من عناصر أدب قومي ما، بُغية الوقوف على مناطق التشابه، ومناطق الاختلاف بين الآداب.

2. أزمة الأدب المقارن

عرف الأدب المقارن أزمة سواء على مستوى المصطلح أو على مستوى المفهوم. فلقد شكل مصطلح الأدب المقارن خلافا، بل أجمعت الآراء على قصوره وضعف دلالته، وفي مقدمتهم بول فان تييغم الذي اعترف بأنه مصطلح غير دقيق الدلالة على موضوعه وأن هناك تعابير أخرى أصح وأوضح منه. ومن هذه المصطلحات:

1. علم الأدب المقارن ← ألمانيا
2. تاريخ الأدب المقارن ← الفرنسيون
3. النقد الأدبي المقارن ← الأمريكيون

كما أن العرب قد عانوا من صياغة هذا المصطلح أهو (مقارِن) بالكسر أم (مقارَن) بالفتح؟ والأصح هو مقارن بالفتح. رغم هذا الاختلاف إلا أنهم آثروا استخدام مصطلح الأدب المقارن دون التسميات الأخرى، وذلك لشيوعه، وإيجازه.

كما اختلف النقاد في تحديد مفهوم مصطلح الأدب المقارن اختلفوا أيضا في تحديد مفهومه من قطر إلى قطر ومن مدرسة فكرية إلى مدرسة فكرية أخرى. ففي فرنسا وهي أول مدرسة استخدمت مصطلح الأدب المقارن "على أنه العلم الذي يبحث ويقارن بين العلاقات المتشابهة بين الآداب المختلفة في لغات مختلفة، أي أن مجاله أدبي بحث، ولا يحاول الربط بين الأدب والفنون والعلوم الإنسانية التطبيقية الأخرى.

في حين يعرفه الأمريكيون "بأنه البحث والمقارنة بين العلاقات المتشابهة بين الآداب المختلفة بعضها والبعض الآخر، وبين الآداب وبقية أنماط الفكر البشري من فنون وعلوم إذ يعتبرون التفكير البشري كلا متكاملا ومتداخلا، ولا يمكن فصل الإنتاج الأدبي عن غيره من أنماط الإنتاج الفكري الأخرى من علوم وفنون.

أما في المدرسة العربية فقد عرفه محمد غنيمي هلال والذي فضل مصطلح "تاريخ الأدب المقارن" متأثرا بالمدرسة الفرنسية يقول:" إنه العلم الذي يدرس على نحو خاص آثار الآداب المختلفة في علاقاتها المتبادلة".

وهذا ما سنتعرف عليه بالتفصيل في محاضرة مدارس الأدب المقارن.

3. الأدب المقارن والأدب العام والأدب العالمي

أ. الأدب المقارن والأدب العام

بعد أن تعرفنا على تعريف الأدب المقارن، سنتعرف على تعريف الأدب العام، وهو مصطلح قديم كان موجودا في بداية نشأة الدراسات المقارنة ونقصد به مجموعة البحوث التي تعرض للوقائع والموضوعات المشتركة بين عدد من الآداب سواء في علاقاتها المتبادلة أم في انطباقها بعضها على بعض، ويتناول موضوعا في فترة محدودة وأماكن غير محدودة.

بدأ الأدب العام يتبلور علما، يختلف عن الأدب المقارن:

1. مجاله ليس دراسة الأدب فقط
2. لا يقتصر على دراسة أدبين أو عملين...ليس ثنائي بل متعدد.

3. لا يشترط اتساع الزمن وإنما يشترط اتساع المساحة.
4. يدع الأدب العام للأدب المقارن دراسة ما بين أدبين أو قومين من علاقات واتصالات وتأثير وتأثر، وإنما هو يمشي وراءها ويبني دراسة أخرى مختلفة في تركيبها ومنهجها ونموذجها، وفي المقام الأول، إبراز الأسباب العامة للظواهر الأدبية لأن هذه الظواهر تأخذ في جانب كبير منها، شكلا مغايرا في كل بلد، بحكم الظروف الخاصة، أو المناخ الجغرافي.

ب. الأدب المقارن والأدب العالمي

الأدب العالمي هو الأدب الذي ارتقى إلى مستوى العالمية، واجتاز الحدود بين الدول، وترجم إلى كثير من لغات العالم، و حقق انتشارا واسعا، و شهرة كبيرة، بفضل ما يمتلك من خصائص فنية، تتمثل في تصويره بيئته، و تعبيره عن قضايا تهم الإنسان، مثل:"ألف ليلة وليلة" و"كليلة ودمنة"، و"الإلياذة"، و"الكوميديا الإلهية"...وغيرها.

4. نشأة الأدب المقارن وتطوره

كل من يحاول الوقوف على نشأة الأدب المقارن لا بد أن يقف عند أول نشأة أوروبية، فهي مهده الأول، فقد احتضنته فرنسا أولا ثم ذاع بعد ذلك في باقي أوروبا وصولا إلى أمريكا ثم إلى الاتحاد السوفياتي ومنه إلى البلاد العربية. إلا أي علم لا ينشأ من فراغ بل تسبقه محاولات وظواهر تمر عليها سنوات أو قرون بعيدة حتى يتكون حولها علم ويقنن لها القواعد.

من بين المحاولات التي سبقت الأدب المقارن.

أ. محاكاة الرومان للأدب اليوناني:

كانت روما تفتقد لوجود أدب له دلالته على قوميتها، فيما عدا ما يحتمل أن يكون في جنس التاريخ والخطابة. إلا أن تأثير الأدب اليوناني في الأدب الروماني كان كردة فعل بفترة وجيزة للاحتلال العسكري الروماني اليوناني عام 146ق م. فإذا كانت روما قد تغلبت على أثينا عسكريا وسياسيا، فقد هزمت أثينا روما ثقافيا وفكريا وحضاريا، وجعلتها تابعة لها وأسيرة لفكر رجالها، والدليل على ذلك دعوة هوراس Horace لأبناء جلدته بمحاكاة الأدب اليوناني قائلا:"اتبعوا أمثلة الإغريق واعكفوا على دراستها ليلا واعكفوا على دراستها نهارا".

وهذه المحاكاة الرومانية للأدب اليوناني كانت تمثل إرهاصات دخلت في إطار الموازنات والسرقات فعدت بمثابة جذور أولية ساعدت على ظهور الأدب المقارن في العصر الحديث.

ب. الآداب الأوروبية في العصور الوسطى

تميز هذا العصر بانتشار الدين المسيحي في كل أنحاء المعمورة الأوروبية، مما أدى إلى ظهور سمات جمعت مختلف أقطار أوروبا ووحدت آدابها، فكانت الآداب في تلك العصور تكتب باللغة اللاتينية وهي نفسها لغة الكنيسة فكان رجال الدين هم المسيطرون على الحركة الفكرية، إلا أن طمعهم في الدنيا أدى إلى تفشي الفساد في الكنيسة ورجالها وسادت فيها البدع والخرافات، ومارست الكنيسة حجرا متعسفا على كل جديد في مجال الفكر والعلم والأدب، واعتبرت كل رأي يخالف ما تراه الكنيسة يعتبر مروقا عن الدين وزندقة يؤدي بصاحبه إلى النفي أو الموت، هذا ما جعل الأدب يعرف تقوقعا في هذا العصر وبالتالي لم نلمس ظواهرا تمد بصلة إلى الأدب المقارن.

ت. نظرية المحاكاة وعصر النهضة

بعد التقوقع على الذي عرفه الأدب في عصور الوسطى، لم تعرف أوروبا في عصر النهضة نظريات جديدة، لذلك كان الحل في الخروج من الأزمة هو الرجوع إلى الآداب اليونانية والرومانية ومحاكاتها، وجعلها مصدرا تستمد منها موضوعاتها وأفكارها. الأمر الذي أدى إلى تشجيع الدراسات المقارنة بين مختلف الآداب القومية مما جعل أدبهم يرتقي ويزدهر، وأصبحت تجربة هؤلاء الكتاب حقلا خصبا للدراسات المقارنة.

ث. الأداب والعصر الكلاسيكي (17م،18م)

حمل هذا العصر بعض المستجدات والمتغيرات على المستوى السياسي والاجتماعي والأدبي، نتيجة القيام ببعض الرحلات والهجرات وما تنقله الصحف من أخبار، مما أوجد بعض الدعوات بعدم الاكتفاء بمحاكاة الآداب العريقة، بل الانفتاح والاطلاع على الآداب الأوروبية الحديثة.

وهذا ما دعا إليه فولتير **Voltair** الذي وجد أن هناك شقاقا بين ما يسمون أنفسهم أوروبا الشمالية وأوروبا الجنوبية، فهذه الأخيرة ترى أنها الأكثر حضارة وعمقا ويقولون نحن ورثة الحضارة القديمة وكانوا يقللون من شأن أبناء الشمال.

فظهر فولتير والذي رحل إلى الإنجليز واتقن لغتهم، واكتشف بذلك وليام شكسبير، فعاد إلى فرنسا وكتب عنه وعلى أنه صاحب أفكار، ومجدد في المسرح والشعر وترجمه إلى الفرنسية، وأحدث هذا انقلابا، وجعل الناس يرون أن الفصل بين الشمال والجنوب هي خرافة لا معنى لها، وأن الأدب الحقيقي يوجد في كل مكان وليس مقتصرا على زمن ولا مكان محددين.

فبدأ يحدث في القرن 18م تأثير وتأثر بين الآداب وتركز خاصة في نقل سير المؤلفين وعرض بعض من مؤلفاتهم.

ج. الآدب في القرن التاسع عشر

ليعرف القرن 19م في أوروبا عكوف العلماء على مختلف الدراسات الأدبية والعلمية والاجتماعية، فازدهار العلم وتقدم المجتمع، مما ترك أثارا واضحة على الدراسات الأدبية عامة والمقارنة خاصة.

وقد ساعد على نشأة الأدب المقارن في فرنسا، ظهور كتاب "عن ألمانيا" لمدام دي ستايل والتي نقلت أثناء رحلتها إلى ألمانيا صورة الشعب الألماني، وما يزخر به من فكر وأدب وأخلاق والتي دعت إلى دراسة الآداب في لغاتها الأصلية، بقولها:"إن الأمم ينبغي أن تستهدي كل واحدة منها بالأخرى ومن الخطإ الفاحش أن تبتعد أمة عن مصدر ضوء يمكن أن تستعيره".

وكان للنهضة العلمية أيضا في هذا العصر أثرها في الأدب المقارن، إذ ظهرت نظريات علمية كان لها أثرها على الدراسات المقارنة، ومن أهمها نظرية "النشوء والارتقاء" لدارون **Darwin**. والتي تحدث فيها عن فصائل الأنواع، وعن فكرة تعرض كل نوع إلى فترة الميلاد والنضج والضعف والاختفاء. فحاول الدارسون تطبيق هذه النظرية على الأجناس الأدبية مما جعلهم يقتربون من الأدب المقارن.

وفي هذا المناخ العام للقرن التاسع عشر ولد علم الأدب المقارن وظهر هذا المصطلح لأول مرة على يد فيلمان سنة 1827م.

5. أهمية الأدب المقارن

1. **خدمة الأدب القومي، وتوسيع الدائرة التي يدور في فلكها سواء من حيث الأجناس الأدبية أو من حيث المواضيع.**
2. **ضرورة إجلاء نواحي الأصالة في الأدب القومي وفصلها عن النواحي الدخيلة.**
3. **تفتح أعين الأدباء القوميين على صورة بلادهم في الآداب الأخرى.**
4. **تمكن الباحثون من دراسة الظواهر الأدبية التي لم يقتصر وجودها على أدب قومي واحد بل اكتسب انتشارها صفة العالمية.**
5. **العمل على زيادة التفاهم بين الشعوب.**
6. **أعطى الأدب المقارن دفعة جديدة لتطور وازدهار علوم أدبية أخرى كالنقد الأدبي الحديث، وتاريخ الأدب.**

في الأخير يمكن القول أن الأدب المقارن هو فرع من فروع المعرفة، عرف إشكالات عديدة سواء على مستوى المصطلح أو المفهوم، ظهر هذا العلم على شكل ظواهر بسيطة في مختلف الأقطار سواء العربية أو الغربية، إلا أنه لم يظهر كعلم له قوانينه إلا في فرنسا في القرن التاسع عشر، ليعرف انتشارا بعد ذلك في مختلف الدول، ساعد هذا العلم على زيادة التفاهم والتقارب بين الشعوب.